

صورة الهقار في كتاب (رجال جبال الهقار) لأوديت برنات

The image of Hoggar in the Book (Hoggar mountain men) by Odette Barnazat

أ.د. رمضان حينووي

مخبر الموروث العلمي والثقافي لمنطقة تامنغست - جامعة تامنغست (الجزائر)

University of Tamanghasset -Algeria

ramdanne@gmail.com

تاريخ النشر: 2022/07/28.	تاريخ القبول: 2022/07/18.	تاريخ الإرسال: 2022/06/18.
--------------------------	---------------------------	----------------------------

ملخص البحث

تحاول هذه الورقة رصد صورة الهقار كما وردت في كتاب رحالة فرنسية عاشت بالهقار فترة طويلة.. إنها أوديت برنات التي يمكن القول إنها أحاطت معرفة بهذه المنطقة من الوطن الجزائري.

وتهدف الورقة إلى بيان الأهمية التي أولاها الرحالة الغربيون للهقار بوصفه منطقة أثرية ومتحفا مفتوحا على الطبيعة بكل ما يتضمن من قيم وعادات وطقوس وخصائص جعلت منه محط الأنظار.

وتتمثل إشكالياتها في السؤالين المتكاملين الآتيين: كيف قرأت برنات لوحة الهقار المتنوعة جغرافيا واجتماعيا وثقافيا، وما الأثر الذي يجده القارئ لهذا الكتاب بالنظر إلى الاختلاف الثقافي بين المرسل والمتلقي؟

الكلمات المفتاح : صورة، الهقار، رجال، جبال، أوديت برنات

Abstract:

This article attempts to follow the image of Hoggar as it appears in the book of a French traveler who lived in Hoggar for a long time.

The article aims to show the importance that Western travelers attached to the Hoggar as an archaeological area and a museum open to nature with all its values, customs, rituals and characteristics that made it the center of attention.

His problem is represented in the following two complementary questions: How Bernezt read the different images of the Hoggar geographically, socially and culturally, and what impact does the reader find in this book in view of the cultural difference between the sender and the receiver?

Key words: The image, Hoggar , mountain men, Odette Barnazat

ramdanne@gmail.com

بريد المرسل:



مقدمة:

لم ينته الاستشراق مع أعلامه الكبار في أوروبا منتصف القرن الماضي كما تزعم كثير من الدراسات، بل امتد نشاطه إلى وقتنا الحالي، مع تغير طفيف في الشكليات، فقد ظل الفكر الغربي ينطلق من مركزيته لجعل الشرق مجرد موضوع للدراسة والتحليل، مستغلا ظاهرة الاختلاف التي لم تضيق دائرتها على الرغم مما بسطته المدنية من تقارب بين الشعوب عبر التكنولوجيا ومظاهر التمدين المختلفة.

ولقد كان الهقار بجاذبيته السياحية، واختلافه الثقافي محط أنظار الرحالة الغربيين عموما والفرنسيين خصوصا، لما يحمله من عجب وغريب، فسلطوا عليه كثيرا من اهتماماتهم، وبخاصة ما تعلق بصورة المجتمع وما تمثله من عادات وتقاليد وأنظمة اجتماعية لافتة، في وقت لم تكن الكتابات المحلية قد برزت بشكل يغني عما وجدناه في كتب الأجانب.

وإذا كنا اليوم نتطلع إلى قراءات مستمرة للتراث الاستشراقي حول الهقار وغيره، فلأن الفضل يعود لذلك التراث في تحفيزنا على الكتابة، وحفرنا في تاريخ المنطقة، واستنطاقنا لذاكرتها المثقلة بالمخبا والمجهول، ولا يعني ذلك تنزيه كتابات الرحالة المستشرقين عن الخطأ أو الزيف، ولكننا نقدر الجهود التي بذلوها في منحنا أرضية انطلاق تصحح ما انحرف وتعزز ما صح، وهو ما لوحظ في كتابات المستشرقين حول الشرق المختلف عموما. ولو أن الشرقي استغرب¹ لعمملت كتاباته لدى الغربيين بالطريقة نفسها والمنطق نفسه.

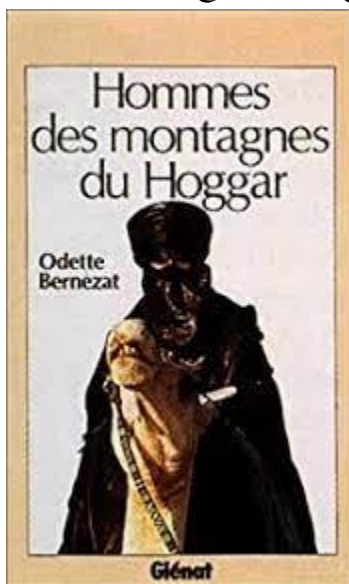
وتصبو هذه الورقة إلى الإجابة عن سؤال جوهري مفاده: كيف استطاعت أوديت برنات² بوصفها رحالة غربية التعبير عن الوسط الهقاري والوصول إلى صورة مقبولة عن الهقار؟

أولا: تقديم عام للكتاب:

يحمل الكتاب عنوان (Homme des montagnes du Hoggar)، ما ترجمته (رجال جبال الهقار)، رقم إيداعه القانوني 6709 لسنة 1984 بفرنسا، طبع دار (Glénat). وينتهي عند الصفحة 279.

يحتوي الكتاب على مقدمة ومجموعة فصول أو أقسام بلغت 54 قسما، رتبت بحسب الحدث الرحلي الذي عاشته الكاتبة على امتداد وجودها بالهقار، وكل قسم يحمل عنوانا رئيسيا من دون عناوين فرعية، لأن الكتاب ورد في شكل قصصي يميزه السرد والحوار بين الشخصيات.

كما يتضمن الكتاب خارطة للمناطق المشككة للهقار، ومجموعة من الصور لمختلف الحياة الاجتماعية للبادية، يغلب عليها صور الوجوه والجمل والخيام بشكل لافت. قدم للكتاب الأخ (جون ماري كورطاد)، الذي يبدو أنه كان راهبا في كنيسة أسكرام في تلك الفترة، وقد أرخ لتقدمه بتاريخ يوليو/ جويلية 1975، بأعالي أسكرام.



صورة الغلاف

ثانيا: بيليوغرافيا كتب الرحالة حول الهقار:

نال الهقار شهرة عالمية بفضل عوامل عدة؛ منها طبيعته الخلابة بمرتفعاتها الصخرية ورمالها وطقسها، ومنها مكونه البشري الأمازيغي الذي يضرب بجذوره في عمق التاريخ، إضافة إلى طابع البداوة الذي حافظ على كثير من السمات العريقة في مخيال وسلوك الإنسان في هذه المنطقة. لهذا نجد مجموعة من الغربيين ولوا وجوههم شطر الهقار يستنطقون تاريخه وحضارته، وينقلون ما شاهدوه وعاشوه رفقة هذا الشعب البسيط من عادات وتقاليد وأساليب حياة.

من هؤلاء مثلا -إضافة إلى وأوديت برنرات (Odette Bernezat)- نجد هنري لوط (Henri Lhote) في عمله: الأول موسوم بـ(طوارق الهقار)، والثاني بعنوان (الهقار: فضاء وأزمة)، وروجيه فريسون روش (Roger Frison-Roche) في (نداء الهقار) و(خمسون عاما في الصحراء)، وكلود بلونقرونون (Claude Blanguernon) في (الهقار)، وفرانسوا دي شاسلو (François de Chasseloup) في كتابه (فن الكهوف في الهقار)، ومارفال بيرتوان Maraval Bertoin في (مسالك الهقار)، ودوشون جيرسي (J.duchon) في (المغامرة الكبرى الأخيرة للطوارق)، فيليب رينيه (Philippe Régnier) في (طاغية الهقار)، وإيريك إيمانويل شميت (Éric-Emmanuel Schmitt) في (ليه النار)، وجون كيرليف (kerlyve) في (ابن الهقار)، وغيرها.³

هذه المؤلفات ليست في مجملها دراسات علمية أو أبحاثا أكاديمية، بل تندرج تحت أدب الرحلة أو الأدب القصصي، فهي تركز بالأساس على ما يلاحظه ويسجله الرحالة من خلال معاشته لشريحة معينة من هذا المجتمع، غير أن هذا النوع من التأليف كان قاعدة أساسية لإطلاق أبحاث جادة، ودراسات اجتماعية واثربولوجية ولغوية هامة مثلما توضحه أوديت برنرات في كتابها (رجال جبال الهقار) حين تقول: "بعد الاهتمام بالأرض أصبح سكان الهقار مادة للفضول العلمي الواسع من اللغويين وعلماء الأعراق والأنثروبولوجيين الذين اهتموا بالبحث عن هوية التوارق⁴، ولم يتركوا شيئا جانبا، درسوا أشياء كثيرة في سبيل الوصول إلى النتيجة"⁵.

ومع علمنا أن هذه الكتابات موجهة أساسا إلى الإنسان الغربي، فإن نظرتنا إليها وتقييمنا لها يجب أن يكونا في هذا الإطار، الأمر الذي يدفعنا إلى القول: إن نقد بعض ما جاء فيها لا ينفي قيمتها البالغة، وفضلها في تعريفنا بكثير من الجوانب الغائبة في تاريخنا.

ثالثا: المنطلق الفكري في الكتابة عن الهقار:

في محاولة فهمنا للمنطلق الفكري لأوديت برنات في كتابها (رجال جبال الهقار)، يمكن أن نبدأ من مقدمته التي عرفت فيها بالسماوات الجغرافية والبشرية لسكان الهقار، أولئك الذين قضت في أرضهم فترة زمنية طويلة رحالة ومكتشفة، وهو كتاب جمعت فيه مجموعة من القصص والملاحظات التي أعطت هذه المنطقة من الصحراء الجزائرية رونقها السياحي، حيث كشفت عن الوجه الآخر لقسوة الصحراء ووحشتها.

تقول:

لا أدري إلى أين تمضي الحقيقة، وأين يتوقف الخطأ،
لست عالمة ولا واسعة المعرفة، لكنني اكتشفت في الهقار ما هو أكثر
من أرض ساحرة.. لقد أحببت فيه بلدا من جبال عنيفة وسهول
منبسطة، بلدا تتوزع فصوله بين خريف دافئ وشتاء متجمد وصيف
حار، بلدا مغلفا بسماء ليست دائما زرقاء أسطورية، واكتشفت في
شعبه ليس فقط أناسا بدوا في انتجاعهم السرمدية، بل رعاة هادئون
متمسكون بأرضهم بين حدين مضبوطين.. اكتشفت أن هذا الشعب
المثلث الذي لا نرى منه غير العينين له وجه كالذي لدينا، بالتعبير التي
لدينا من بسمة وهموم ومزاج وقلق وحزن وسعادة.⁶

يكشف هذا النص عن انطلاق برنات من فضولها وتطلعها لمعرفة شعب مختلف عن ذلك الذي انحدرت منه، فقد تركت لنفسها الحرية في تسجيل الأحداث والملاحظات التي عاشتها في صحبة زوجها (جان لوي) ورفقائها الطوارق الذين صاحبوها في رحلاتها الكثيرة، ما أتاح لها نقل حياة هذا الشعب دون خلفية مسبقة ودون تكلف أو انحياز، مؤكدة على أنها ليست عالمة بالمعنى العلمي للكلمة، وليست بذات المعرفة الواسعة، وهما السمتان اللتان تتطلبان دراسة الظواهر الطبيعية والاجتماعية وفق أسس ومعايير علمية أو منهجية محددة.

ولئن لم تكن برنيزات عالمة، فقد كانت تقاريرها وقصصها ومقالاتها عن الهقار سندا هاما للعلماء والرحالة والمؤرخين بمختلف مشاربهم، كما استفادت منها الصحف والمجلات السياحية⁷ التي أتاحت لهذه المنطقة البروز بوصفها واحة من أغنى المناطق تراثا ماديا وغير مادي. فبفضل هذا النوع من الرحلات تطورت المعارف المتعلقة بالأماكن البعيدة أو المنسية أو المنطوية على نفسها.

كان عام 1967 بداية المغامرة بالنسبة للثنائي برنيزات في الصحراء الجزائرية الواسعة، وعلى امتداد أربعين سنة من الترحال في هذا الجزء من العالم استطاع الزوجان أن ينتجا مجموعة من الكتب الموثقة لما شاهداه وأدركاه من خلال الاحتكاك بالأهالي الذين يبدو أنهم وفروا لهما جوا من التعاون مكنهما من جمع هذا الكم الهائل من الوثائق والصور التي فتحت نوافذ واسعة للتعرف على مجتمع الهقار.

ويمكننا، بناء على ذلك، أن نأخذ باعتقاد براءة الكاتبة من الخلفية الاستعمارية، أو الخلفية الاستعمارية التي تميزت بها كثير من الكتابات الغربية التي تناولت العالم الثالث كما كان يوصف، يدعم ذلك القالب الذي صيغ به الكتاب، ممثلا في خاصية الوصف والتعريف المستنديين إلى المشاهدة العينية المباشرة، ما جعل الكتاب يندرج تحت (أدب الرحلة). كما أن الفترة التي تمت فيها الرحلة (سنوات استقلال الجزائر)، قد تكون سببا لهذا التوجه الجديد في التعامل مع المستعمرات القديمة؛ إذ لم يعد ثمة ما يدعو إلى العودة إلى الأفكار الاستشراقية الأولى التي صاحبت الوجود الاستعماري، وعملت على تشويه الحقائق، ورسم اللوحة الطبيعية والبشرية للشعوب المستعمرة بالشكل المشوه في غالب الأحيان.

رابعا: الاكتشاف والعجيب:

يرتبط العجيب بلحظة الاكتشاف الأولى على الأخص، قد تمتد إلى لحظات تقصر أو تطول، لكن ميلادها يتزامن ولحظة اكتشاف الشيء، ذلك المختلف الغريب الذي يصطدم بالصورة التي ثبتتها الأيام والسنون في أذهاننا، خصوصا إذا كان الإنسان يعتقد أن الكون بما احتواه هو نموذج لما يعيشه في بيئته وبين قومه، وأن ما لديه هو ما يجب أن يكون لدى غيره ممن لا يشاطرونه المكان والبيئة والثقافة.

والإحساس العجيب ليس غريبا عن الفكر الأوروبي في نظره إلى العوالم الأخرى التي اكتشفها، وربما كان للشعور القديم عنده بالتفوق وصناعة الأشياء دور أساس في بلورة مثل ذلك الإحساس؛ حين تتحول الحياة الأوروبية إلى مقياس أو مثال في مختلف مراحل تطورها، فيوصف الآخر بشرا أو كائنا أو شيئا بالغريب والعجيب، ولقد كانت اكتشافات العالم القديمة خير دليل على ذلك، حيث اكتشف الأوروبي جزر المحيطات والقارات المختلفة ليجد حياة غير التي يحياها أو يتصورها، وشعوبا تختلف عنه في اللون والشكل ونمط الحياة والتفكير، فكان تعامله مع هذه الاكتشافات متفاوتا بين محاولة التعايش والإبادة التي مست شعوبا بدائية كثيرة تحت أغطية عديدة.

كان هذا في عصور البحث عن النفوذ ومناطق الثروة والسيطرة أين كانت السياسات الاستعمارية هي الدافع لتلك الأعمال القاسية ، بعدها شاهدنا فترة من مراجعة العلاقات بين الشعوب، أملت القوانين الدولية والتقدم الحاصل على مستوى حقوق الإنسان، فتحوّلت تلك الممارسات الشائنة لدى الأجناس المتفوقة إلى كشوف علمية تحاول أن تستقرئ الأزمنة والأمكنة والطبيعة والإنسان للوصول إلى فهم الطبائع والعادات وأنماط العيش عند الشعوب المختلفة بغية الوصول إلى ما يدل على أن هذا التنوع وذاك الاختلاف هما مما يعطي للحياة البشرية جمالها وتكاملها وانسجامها.

وهكذا توجهت جهود الرحالة والمكتشفين في العصور المتأخرة، وخصوصا بعد استقلال أغلب الشعوب الصغيرة أو الضعيفة، إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية لدراسة طبيعة وتفاصيل الحياة المقابلة لحياة التحضر والتمدن، فنالت كثير من الشعوب حظها من الدراسة بصرف النظر عن تقييمنا لها أو نظرتنا إليها وإلى مصداقيتها.

خامسا: الحقار في كتاب برنرات:

عمدت برنرات في كتابها إلى ترتيبه وتبويه بطريقة تكشف عن رغبتها في التعريف بالمجتمع الحقاري وما يحيط به من سلوكات ومعاملات وعادات إضافة إلى أوصاف الأشياء بأكثر قدر ممكن من الدقة، مخضعة ذلك كله إلى منطق القصة الذي أعطى لكتابها طابعا إمتاعيا أكثر منه طابعا علميا ومنهجيا.

إن إطلالة سريعة على مواد الكتاب تبين ذلك؛ وسنحاول في هذا الجدول أن نفصل في أهم المحاور التي اعتمدتها الكاتبة في عرض مغامرتها.

الحيوان	الغذاء	الدين والممنوعات	اللغة	القبائل والأماكن	المعاملات	الطبيعة	اللباس	عادات
الجمال	الماء	الصوم	تماهق	كيل إيسوف	الحب	آبار الماء	الشاش	ترويض الجمال
الحمير	المشروبات	الغذاء المحرم	تيفيناغ	طبقات الأفراد والقبائل	الزواج	الزراعة	لباس الرجل	طقوس التعامل مع الغريب
العقرب	اللحوم		الرسوم الصخرية	تين طربين	الخدم	المنتجعات	لباس وزينة المرأة	
التعلب	تاقل (نوع من الخبز)				النساء	قوافل	النظافة	
الفهد	الشاي				الأصدقاء	النبات والرعي	الثام	
أفاعي	التمور				زيارات	خيام		

			الهدايا					ماعرز
			تدريب الصغار على الجمال					الظأن البري
			الأجانب					
			التحية					

يسمح لنا هذا الجدول بالملاحظات الأولية الآتية:

- أن المظاهر العامة للهقار في صفائه البدوي، قد تجسدت في أغلب عناصرها في صفحات الكتاب، على الأقل في حدود ما صادفته برنيزات في مسارها الرحلي، فلا نجد ما يدل على المدنية أو العمران، بوصفهما مظهرين غير أصيلين.

- جمعت تلك المظاهر ثلاثة عناصر متجانسة تشكل الحياة البدوية الهقارية:

1- الإنسان الفرد: من خلا وصف الأفراد في أشكالهم وتصرفاتهم وخبراتهم

بالصحراء، أبرزها شخصية عبد الله (الشخصية الرئيسية)، بوهرة، موسى أق

بارقائي، ربطي، أكلان أق أمرلوك، وغيرها

2- والحياة الاجتماعية: وتدور حول التعاملات الاجتماعية في أوضاعها المختلفة

(اللقاء- الارتحال- القوافل- الزواج والمصاهرة- الأفراح والضيافة ومعاملة

المرأة، ومعاملة الأجنبي...) وما إليها.

3- والطبيعة الحاضنة ممثلة في الحيوانات البرية والأهلية وأبرزها الجمل بوصفه

وسيلة النقل الرئيسة في الرحلة، إضافة إلى حيوانات الاستهلاك (الجمل-

الماعز- الضأن)، والحيوانات الوحشية النافرة (التغلب - الفهد، الأفاعي، العقارب).

-تقدم لنا هذه العناصر الحياتية صورة شاملة عن إنسان الهقار، هي جزء من صورة إنسان الصحراء عموما، بحكم البيئة المشتركة في صفاتها العامة؛ إذ تصدق هذه الصورة إلى حد ما على إنسان الساورة أو توات أو غيرها على سبيل المثال، مع إقرارنا بالاختلاف الجزئي الطبيعي بين هذه البيئات من حيث تعامل الإنسان وعاداته

هذه المحاور العامة تضم تحتها تفاصيل كثيرة ومثيرة، فقد ساعدت الطبيعة القصصية للكتاب بتتبع حياة البدوي الهقاري في تفاصيلها الدقيقة، وهذا ما يفسر لنا عدم انتظام تلك المحاور المشار إليها في ترتيب منطقي. فالإشارة إلى الحيوانات على سبيل المثال لا نجدها في فصل واحد بل نجدها موزعة على كامل الكتاب تحكمها ما تصادفه الكاتبة في رحلتها. ومثل ذلك الكتابة واللغة والرسوم الصخرية التي تنتظم كلها في محور التعبير الإنساني نجدها متباعدة في متن الكتاب، وهكذا.

ونعتقد أن هذه الطريقة في التبويب والعرض أبعدت الكاتبة كثيرا عن الدخول في معترك الجدل والالتزام، ذلك أنها تركت شخوص رحلتها يتصرفون بعفوياتهم معبرين عن حياتهم الخاصة بصفاء وبراءة، ووفقت على مسافة معينة تراقب وتسجل؛ فهي أقرب إلى الصحفي الذي يسجل ما يدر من حوله من دون أن تتدخل شخصيته أو يفرض رأيه واعتقاده. ومن هنا تتكشف الأهداف التي دفعت رحالة فرنسية للسفر إلى عمق الصحراء الجزائرية لتعيش أياما كثيرة في وسط غيب عن بيئتها ومحيطها.

خامسا: خاتمة:

لقد كانت كتابات الغربيين حول الهقار متكأ مهما للدارسين الجزائريين منذ السنوات الأولى لاستقلال الجزائر، أرضية كان لا بد من توفرها للانطلاق نحو التوسع البحثي في دراسة مجتمع إيموهاغ وما يميز حياته الاجتماعية، وصراعه مع البيئة في منطقة جبلية قاسية. وبعيدا عن الأحكام المسبقة عن الغربيين والمستشرقين في تناولهم لقضايا الشرق عموما، كان لزاما علينا أن ننزل كل كتاب مما أنتجوه المنزل التي يستحقها، انطلاقا من علمنا أولا أن كتاباتهم موجهة إلى بني جنسهم، وثانيا أن دواعي اهتمامهم كانت متفاوتة بحسب الفترة الزمنية التي كتب فيها عن

المنطقة. فالذين كتبوا عنها في أثناء الحقبة الاستعمارية مثل شارل دي فوكو (Charles de Foucauld)، والذين جابوا أرجاءها بعد الاستقلال.

لقد نقلوا جميعا صورا عن الهقار ومجتمع إيموهاغ، وكانت أغلب انطباعاتهم مبنية على المشاهدة والمعايشة، ما يجعلنا في هذا المجال نقر لهم بالفضل في نقل كثير من مظاهر الحياة التي لم نعد نراها في حياة الناس في الآونة الأخيرة بفعل التمدن ومسايرة التطور العلمي والتكنولوجي، لمننا من جهة أخرى يهمننا أن نأخذ بهذه الكتابات في حال أردنا تمثل الحياة البدائية لإنسان الهقار، أو استرجاع شيء من ثقافته وعاداته وتقاليده، من خلال توظيفها في الكتابات الحديثة، أو تمثيلها في الحياة الفنية أو تجسيدها على المنابر الاحتفالية وغيرها.

هوامش:

استغرب بمعنى طلب علوم الغرب عكس استشرق.¹
² ولدت أوديت برنيزات عام 1940 في فرنسا قبالة البحر الأبيض المتوسط، ارتبطت حياتها الأولى بجبال الألب متسلقة ومدرية تزلج، وكان يمكن أن تشدها هذه الجبال إليها مدة طويلة لأنها عرفت بحركيتها الفريدة وقدرتها على التنظيم. في عام 1967، اكتشفت رفقة زوجها (جان لوي برنيزات Jean-Louis Bernezat) الصحراء الجزائرية، ورغبت أكثر في شق الدروب الوعرة في جبال الهقار، وفي عام 1969 أنشأ معا وكالة تسمى " رجال و جبال"، وهي أول منظمة محترفة في فرنسا وحول العالم تقترح السفر على ظهور الجمال أو مشيا على الأقدام في الصحراء. وقد كتب لهذا الأسلوب الفريد الدوام مدة 32 عاما برفقة أدلاء من الطوارق والشعانية والموريتانيين والتونسيين.

أحصت أوديت برنيزات 180 رحلة قامت بها في صحاري هذه المنطقة شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، في مقابل 200 رحلة لزوجها (جان لوي) قطعت خلالها الآلاف من الكلومترات دون محرك سيارة، وتوجت كل ذلك بمجموعة من الكتب والمقالات. للمزيد ينظر الرابط:

<http://download.pro.arte.tv/archives/fichiers/02334472.pdf>

³ ينظر: رمضان حينوني. الثقافة الشعبية بالهقار في كتابات الغربيين. مجلة السياق - جامعة غرداية. عدد 1. ديسمبر 2016. ص 48

⁴ التوارق لفظ يطلق على أمازيغ الصحراء الكبرى ، وينطقها العرب عادة (طوارق) ويختلفون في سبب التسمية، غير أن أهالي الهقار يصرون على ضرورة بقاء التسمية الأصلية وهي (إموهاغ)، لتدل على هذا الشعب الذي يتميز بسماته الثقافية الخاصة.

⁵ Odette BERNEZAT. Hommes des montagnes du Hoggar. Glénat. Grenoble. P 9

⁶ Ibid. p 9

⁷ <http://gourara-tourisme.over-blog.com/article-hommage-a-jean-louis-et-odette-bernezat-85896278.html>